باب تفسير التوحيد
وشهادة أن لا إله إلا الله

۞ وقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ الآية... [الإسراء:٥٧].

وقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴾ الآية ... [الزخرف:٢٦-٢٧].

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية... [التوبة:٣١].

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا ﴾ [البقرة:١٦٥](١). [٢٠]

[شرح٢٠] يقول المؤلف رحمه الله: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان تفسير التوحيد الذي =

---

(١) ص٨٩-٩٤.

....

= هو معنى «لا إله إلا الله» بما دل عليه الكتاب والسنة من معناه ومن ضده، فإن الضد يبين المعنى أيضاً.

فالمؤلف ذكر الآيات التي دلت على الشرك؛ فإذا عرف الشرك عرف التوحيد، فالشرك ورد تارة بمعناه وتارة بضده وتارة بهما جميعاً، وقوله: وشهادة أن لا إله إلا الله، بعطف الدال على المدلول؛ لأن التوحيد هو شهادة أن لا إله إلا الله، فعطفها على التوحيد من باب عطف الدّالّ على المدلول، وشهادة أن لا إله إلا الله هو التوحيد، توحيد الله وإخلاص العبادة له، فإن معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وخلق الله من أجله الخليقة؛ لقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

والرسل بُعِثوا بهذا الذي خُلِقت له الخليقة، وهو توحيد الله، والإخلاص له، وصرف العبادة له ـ جل وعلا ـ وطاعة أوامره، وترك نواهيه، والوقوف عند حدوده؛ لهذا خلق الله الثقلين، ولهذا =

....

= بعث الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧] قبلها قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الآية [الإسراء:٥٧].

فبيَّن ﷻ أن المعبودين من دون الله لا يملكون كشف الضر عن عابديهم ولا تحويلاً؛ فدل على بطلان عبادتهم، وهذا من باب تفسير التوحيد بضده؛ فإن دعوة غير الله والتعلق بغيره ضد التوحيد؛ فالتوحيد هو إخلاص العبادة لله وحده وإفراده بها ـ جل وعلا ـ فبيَّن ﷻ أن هؤلاء المدعوين من دون الله من أصنام وملائكة وأنبياء وغير ذلك لا يملكون كشف الضر عن عابديهم بالكلية ولا تحويلهم من مكان إلى مكان، ولا من إنسان إلى إنسان، فهم عاجزون عن ذلك.

فإذا كانوا بهذه الصفة بطلت عبادتهم، ووجب أن يتركوا، وأن =

....

= يعبد الله وحده ﷻ الذي يكشف الضر، ويجلب النفع، ويحول وجهتهم ﷻ، ثم بين ﷻ أن المعبودين من دون الله هم الذين يدعون ربهم ـ جل وعلا ـ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾، أي: يدعوهم أهل الشرك، ﴿ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾، يتقربون إلى الله بالعبادات والطاعات، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾، فهذه حال من يدعون من دون الله من الأنبياء والصالحين.

قال المفسرون فيها: إنها نزلت فيمن يدعون غير الله من الأنبياء والصالحين لأن هذا وصفهم، يدعون إلى ربهم الوسيلة، القربى إلى الله، بطاعة من الطاعات وترك المعاصي، هذه هي الوسيلة، فإن الرسل والصالحين الذين يعبدهم أولئك المشركون، هم في أنفسهم يعبدون الله ويوحدونه ﷻ، ويتقربون إليه بالوسائل التي هي الطاعات، ويرجون رحمته، ويخشون عذابه، فكيف يُعبَدوا من دون الله وهم عباد مربوبون مخلوقون، وهذا لبيان بطلان عبادتهم، وأن هذا الذي فعلوه هو الشرك الأكبر، وهو الذنب الذي لا يغفر، وأن العبادة حق الله وحده، وهو الذي يدعى ويرجى ويخاف ﷻ. =

....

= قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزُّخرُف:٢٦-٢٧] الآية، وهذا في بيان التوحيد أيضاً و﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا في معنى «لا إله» و﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هو «إلا الله»؛ فالآية توضح أن التوحيد والبراءة من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها هو من موالاة الله بالعبادة وحده ﷻ.

فالموحد هو الذي يكف عن عبادة غير الله، ويتبرأ منها، ويعادي عابدي غير الله، ويؤمن بالله وحده، ويواليه ويعبده وحده ﷻ، ولذلك قال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ يتبرأ من معبوداتهم وفيه البراءة من عابديها، وفي الآية الأخرى ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ الآية [الممتحنة:٤].

فتبرَّأ منهم ومن معبوداتهم جميعاً؛ فدل ذلك على أن التوحيد والإيمان يقتضي البراءة من عبادة غير الله، والبراءة من العابدين أيضاً والمعبودين، ويتبرأ منهم ومن عابديهم، ويحب الله وحده، ويؤمن به وحده ﷻ، وهذا معنى: لا إله إلا الله، فإن معناها: لا =

....

= معبود بحق إلا الله، فـ«لا إله»: نفي العبادة لغير الله، وإبطال لها، وبراءة منها، واعتقاد لبطلانها، و«إلا الله»: إفراد العبادة له وحده، وأنه معبود بحق ﷻ دون ما سواه جل وعلا.

قوله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا أيضاً يبين معنى «لا إله إلا الله» وأن «لا إله إلا الله» تقتضي أن يكون الله هو المعبود المحكم في ما يأمر به وينهى عنه ﷻ، ومن اتخذ أحباراً علماء أو رهبانه عباداً يحكمهم، ويحلوا ما أحلوا، ويحرموا ما حرموا، فقد جعلهم آلهة مشرعين فيكون هذا ضد التوحيد، وضد الإيمان، وضد اتِّباع الرسل، صلَّى الله عليهم وسلَّم.

وهذا من عمل اليهود والنصارى، استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فحكموا علماءهم وعبادهم، وأحلوا ما أحلوا وحرموا ما حرموا، وإن خالف ما في التوراة والإنجيل، وهذا هو الكفر الظاهر، والشرك الواضح، وهو شرك الطاعة (شرك طاعة الله ورسوله)، وهذا مما يضاد قول: «لا إله إلا الله» ويضاد شهادة «أن محمداً رسول الله» وإن شهادة «محمد رسول الله» =

....

= تقتضي اتباع الرسول ﷺ وتحكيمه، كما أن «لا إله إلا الله» تقتضي إفراد الله بالحكم، وأنه الحاكم بين عبادِه مما جاء الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام.

فاتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، ومشرعين ومعبودين من دون الله، مضاد لقول: «لا إله إلا الله» ولكن يطاع العالم في المعروف، ويطاع العابد في المعروف، ويطاع الرئيس في المعروف، ويطاع الأب في المعروف، ويطاع الزوج في المعروف، والزوجة كذلك، أما أن يطاع في معاصي الله فلا، لكن طاعته في معاصي الله قسمان: إذا أطاعهم في معاصي الله مع اعتقاد ذلك أنه مخالف لشرع الله أو أنه جائز أو حسن، هذا ردة عن الإسلام.

وأما إذا أطاعهم للهوى والرغبة في دنياهم أو رئاستهم، وهو يعلم أنه عاصٍ؛ فهذه كبيرة من الكبائر ومعصية من المعاصي، ولا يكون كفراً أكبر، ولا ردة عن الإسلام؛ لإيمانه أنه مخطئ وأنه عاصٍ؛ ولهذا فعل ما فعل والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «لا طاعةَ في معصيةٍ، إنما الطاعةُ في المعروفِ»[1]. وقال: «لا طاعةَ =

(١) أخرجه البخاري: أخبار الآحاد (٧٢٥٧)، ومسلم: الإمارة (١٨٤٠).

....

= لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ»[1].

فطاعة المخلوق تنقسم عدة أقسام، وهناك قسم ثالث: وهو الطاعة فيما أخطأ فيه العالم عن اجتهاد، فإذا أطاعه عن اجتهاد، وظن أنه هو الحق، وثبت عليه الأدلة، هذا إن كان عن اجتهاد؛ فله أجر الاجتهاد، ويفوته أجر الصواب، وإذا أصاب في اجتهاده فله أجران؛ فهذا لا يعد عاصياً، ويعد مجتهداً إذا نظر في الدليل واعتنى، ووافق هذا العالم في هذا الشيء على أنه صواب، ولكنه بان في الأدلة أنه خطأ.

فهذا الموافق إذا كان عن اجتهاد وعن تحري الحق يكون معذوراً، ويكون له أجر اجتهاده، ويفوته أجر الصواب؛ فصار بذلك الموافق لمن خالف الحق على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: يأخذ بقوله لاعتقاد أنه يجوز له ذلك، وأنه لا بأس أن يحل ما حرمه الله، وأن يحرم ما أحله الله، وأن هذا جائز، وأنهم أولى منا بالشرع؛ أو ما أشبه ذلك فهذا كفر والعياذ بالله ردة. =

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٣١).

....

= القسم الثاني: يطيعه وهو يعلم أنه عاصٍ، وأنه مخطئ، ولكنه أطاعه في ضرب فلان، أو في قتل فلان، أو ما أشبه ذلك من أجل الرياسة والهوى، أو من أجل المال أو ما أشبه ذلك، مثل ما يفعل بعض الحكام وبعض القضاة الذين لا يخافون الله، يأخذون الرشوة فيحكمون بغير ما أنزل الله، فهذه معصية وكبيرة ومنكر؛ لأنه يعرف أنه عاصٍ ولم يستحل هذا الشيء.

القسم الثالث: أن يوافق على الباطل من اجتهاد لا عن تعمد، ولكن اجتهد في هذا الحكم الشرعي، فظن أن هذا هو الصواب الذي قاله العالم الفلاني، فوافقه عليه عن اجتهاد ونظر في الأدلة، ولكن هذا الذي ظهر له، فيكون مجتهداً مخطئاً له أجر اجتهاده ويفوته أجر الصواب، وفق الله الجميع وصلى الله على نبينا محمد.

۞ بابُ تفسيرِ التوحيدِ وشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ. أي: تفسيرِ هاتين الكلمتينِ، والعطفُ لتغايُرِ اللفظين، وإلّا فالمعنَى واحدٌ، ولما ذكرَ المصنِّفُ في الأبواب السابقة التوحيدَ وفضائلَه، والدعوةَ إليه، والخوفَ من ضِدِّه الذي هو الشِّركُ(١). [٢١]

[شرح٢١] أشار المهذِّب الشيخ عبد الرحمن بن حسن في «فتح المجيد»، أن التوحيد ليس مجرد تغيير الألفاظ، بل أراد المؤلف أن يبين أن الأول هو معنى الثاني، وأن تفسير التوحيد هو «شهادة أن لا إله إلا الله»، يريد أن التوحيد هو معنى «شهادة أن لا إله إلا الله»، وهو من عطف الدّالّ على المدلول، الدّالُّ: هو «شهادة أن لا إله إلا الله»، والمدلول: هو توحيد الله.

وحين قال: «باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»، أي: باب بيان معنى التوحيد ومعنى «شهادة أن لا إله إلا الله»؛ والتوحيد هو مدلول «شهادة أن لا إله إلا الله» هذه الكلمة دالَّة والتوحيد مدلول. =

---

(١) ص٨٩.

....

= والتوحيد مصدر وَحَدَ، أي: اعتقد وحدانية الله، وأنه منساق للعبادة لله ﷻ، والتوحيد يكون في الربوبية، ويكون في الأسماء والصفات، ويكون في العبادة، فيكون في الأنواع الثلاثة.

فالموحد الكامل هو الذي وحَّد الله بالأنواع الثلاثة، وحده من جهة ربوبيته، وأنه رب الجميع لا شريك له، ووحده بالأسماء والصفات، وأنه لا شريك له في أسمائه وصفاته، بل له الكمال المطلق في كل ما سمى به نفسه ووصف به نفسه ﷻ لا شريك له في ذلك، ووحده في العبادة، فلم يشرك معه أحداً، فخصه بالعبادة دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الكامل، وهذا هو توحيد المرسلين وأتباعهم.

بخلاف التوحيد الأول وهو توحيد الربوبية؛ فهذا يشارك فيه عباد الأوثان الذين أقروا بالربوبية، وأن الله ربهم وخالقهم، وكذلك توحيد الأسماء والصفات يشارك فيه من أثبت أسماء الله وصفاته، ولكنه لم يوفق لإخلاص العبادة لله وحده ﷻ.

فلا يسلم من الشرك، ولا يسلم من الخلل إلا من جمع الأنواع =

....

= الثلاثة، وحد الله في ربوبيته، ووحد الله في أسمائه وصفاته، ووحده سبحانه في العبادة.

فالمؤلف رحمه الله حين قال: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله) ليلفت الأنظار، ولينتبه الطالب لمعنى هذا الكلام، فـ«شهادة أن لا إله إلا الله» هي الكلمة الدالّة، وهي الكلمة التي دعا إليها ﷺ وأمر بها، وحث عليها، لماذا؟ لا لمجرد اللفظ بل لما تحتها من المعنى، ولهذا لو قالها ولم يأت بالمعنى كالمنافقين واليهود وأشباههم والمرتدين ما نفعتهم حتى يأتوا بالمعنى.

فـ«شهادة أن لا إله إلا الله» هي الدالّة وهي الكلمة التي يراد معناها وهي التوحيد، وأداء الأحكام الشرعية هو المدلول وهو المقصود من «لا إله إلا الله».

فالمقصود منها أن يوحد الله ﷻ من جميع الوجوه، وأن تؤدى الأحكام التي شرع، وأن يحذر مما نهى عنه، فيكون المؤدي لها عاملاً بمقتضاها من جهة الإخلاص في الوجوه الثلاثة، ومن جهة الالتزام بالأحكام التي هي حق «لا إله إلا الله»*.

*** س: قوله: «والعطف لتغاير اللفظين» كيف نفهمه؟** =

....

= ج: قوله ضعيف ليس المراد هذا فقط، بل مثل ما قال الشيخ في التوحيد فأراد المؤلف التنبيه على هذه الكلمة، وليعلم الطالب أن هذه الكلمة لها مدلول وهو التوحيد، فهو من عطف الدّالّ على المدلول، فالدال «شهادة أن لا إله إلا الله» والمدلول هو التوحيد.

ولهذا في حديث ابن عمر في «صحيح مسلم» قال: «بُنِي الإسلام على خمسة: على أن يُوَحَّدَ اللهُ، وإقامِ الصلاةِ...» إلى آخره[١]، وفيه أيضاً قال: «أن يُعبَد الله ويُكفَر بما دونه»[٢]، وحديث جبرائيل من حديث أبي هريرة لما سأل عن الإسلام قال: «أن تعبد اللهَ ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة...» إلى آخره[٣].

ففسر «شهادة أن لا إله إلا الله» بـ: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وفسر «لا إله إلا الله» في حديث ابن عمر على أن يوحد الله، وفي لفظ «أن يعبد الله ويكفر بما دونه» المقصود هو المعنى وليس المراد مجرد اللفظ، فلو أن إنساناً قال: «لا إله إلا الله» وصلى وصام ولكنه يعبد غير الله، فقد نقضها.

أو قال: «لا إله إلا الله» ولكن يسب الله، فهو لا يلزمها حقها، فإن =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٦)(١٩).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (١٦)(٢٠).

(٣) أخرجه البخاري: الإيمان (٥٠)، ومسلم: الإيمان (١٠).

....

= مقتضى «لا إله إلا الله» أن توحده سبحانه وتعظمه وتقدسه، فإذا جمعت بين توحيده وسبّه، فتعبده وحده، ولكن تسبه أو تسب رسوله أو تسب دينه، أو تستهزئ بدينه، فقد نقض هذا العمل منك ما دلت عليه الكلمة من توحيد الله وكماله ﷻ.

۞ وكأنَّ النفوسَ اشتاقت إلى معرفةِ هذا الأمرِ الذي خُلِقَت له الخليقة، والذي بلغَ من شأنِه عندَ الله أن مَن لقيَه به غُفِر له وإن لقيَه بمِلءِ الأرضِ خطايا، بيَّن ـ رحمه الله ـ في هذا البابِ أنه ليس اسماً لا معنَى له، أو قولاً لا حقيقةَ له كما يظنّه الجاهلون الذين يظنّون أن غايةَ التحقيقِ فيه هو النُّطقُ بكلمة الشهادةِ من غيرِ اعتقادِ القلبِ بشيءٍ من المعاني.

والحاذِقُ منهم يظنُّ أن معنى «الإله» هو الخالقُ المتفرِّدُ بالمُلكِ، فتكون غايةُ معرفتِه هو الإقرارَ بتوحيدِ الربوبية(١). [٢٢]

[شرح٢٢] أي: ما دمت أعرف أن الله هو الخالق الرازق، وأنه الضّارّ النافع، هذا معنى كلام الجهلة، وقد غلب هذا على أغلب النفوس، ما دمت على هذا الاعتقاد لا شيء يضرني، كوني أعبد البدوي أو أعبد الرسول، أو أعبد عبد القادر الجيلاني أو التيجاني أو فلاناً أو فلاناً، ما دمت أعتقد أنهم لا يتصرفون بأنفسهم، =

---

(١) ص٨٩.

....

= ولكنهم كوسائط أو شفعاء، وأن الله قد يعطيهم هذه الأشياء فيتصرفون في الكون، لا شيء يضرني، هذا هو الذي بُلِيَ به الأكثرون.

ونفس هذا المعنى قاله كفار قريش، فهم لم يفتهم هذا، فقد قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] وقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨] فهل عذروا؟! لم يعذروا، قال الله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس:١٨] ﷻ قال ـ جل وعلا ـ لما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر:٣].

فالمعنى أن من كذب كفر، كذب في قوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ وكفر بهذا الصنيع وهذا العمل.

۞ وهذا ليسَ هو المرادَ بالتوحيد، ولا هو أيضاً معنى «لا إلهَ إلا اللهُ» وإن كان لا بُدَّ منه في التوحيد، بل التوحيدُ اسمٌ لمعنًى عظيم، وقولٌ له معنًى جليلٌ هو أجلُّ من جميع المعاني، وحاصلُه: هو البراءةُ من عبادةِ كلِّ ما سوى الله، والإقبالُ بالقلبِ والعبادة على الله.

وذلك هو معنَى الكفرِ بالطاغوتِ والإيمانِ بالله، وهو معنَى «لا إلهَ إلا اللهُ»، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال تعالى حكايةً عن مؤمنِ يس: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يس].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى =

= ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾ [الزمر][(١)]. [٢٣]

[شرح٢٣] قوله: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ معناه: مخلصاً له العبادة، أي: الدين هنا العبادة، فما قبله يدل عليه، فالدين كلمة مشتركة تطلق على الطاعة والجزاء والحساب وأشباهها، فكل مقام له مقال، والمعنى يفهم من السياق.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩] أي: الطاعة التي أرادها ـ جل وعلا ـ وطلبها من عباده، والذي أمرهم بها هو الإسلام، فالدين هنا بمعنى الطاعة والتذلل والخضوع؛ لأنه قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ المعنى أن الشيء المطلوب من الله، والذي هو طاعته والتقرب إليه والتذلل له ﷻ هو الإسلام، فهو المطلوب*.

---

* س: قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، هل يدخل فيه الدين؟

ج: كل أنواع العبادة يدخل في الدين، العبادة بجميع أنواعها.

---

(١) ص٨٩-٩٠.

۞ وقال تعالى حكايةً عن مؤمن آلِ فرعونَ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [غافر:٤١-٤٣][1]. [٢٤]

[شرح٢٤] من هذا الباب قوله جل وعلا: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار] يعني: جزاء الناس وحسابهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤].

---

(١) ص٩٠.

۞ والآياتُ في هذا كثيرةٌ تبين أن معنَى «لا إلهَ إلا اللهُ» هو البراءةُ من عبادةِ ما سوى الله من الشفعاءِ والأندادِ، وإفرادُ الله بالعبادةِ(١). [٢٥]

[شرح٢٥] يعني: يتضمن معنى «لا إله إلا الله» إفراده بالعبادة وموالاته على ذلك، ومحبته سبحانه، ويتضمن أيضاً ترك الشرك والبراءة منه ومن أهل الشرك والموالاة على هذا التوحيد، والمعاداة على هذا الشرك، فهي تضمنت إفراد الله بالعبادة، وموالاة الله سبحانه، ومحبته وتعظيمه، والتذلل له والخضوع، فليس التوحيد مجرداً، ولكن معه خضوع، ومعه ذل، ومعه خوف، ومعه رجاء، ومعه إخلاص لله ﷻ، ومعه براءة وتنصل من هذا الشرك، وبراءة من أهله ومعاداة لهم، حتى يعلم موالاته لهذا المعنى، ومعاداته لهذا المعنى الآخر المضاد، والله المستعان.

---

(١) ص٩٠.

۞ فهذا هو الهدَى ودينُ الحقِّ الذي أرسلَ اللهُ به رُسلَه، وأنزلَ به كُتبَه، أما قولُ الإنسانِ: «لا إلهَ إلا اللهُ» من غيرِ معرفةٍ لمعناها ولا عملٍ به، أو دعواه أنه من أهلِ التوحيدِ، وهو لا يعرفُ التوحيدَ، بل ربما يخلصُ لغيرِ الله من عبادته من الدعاءِ والخوفِ والذبحِ والنَّذرِ والتوبةِ والإنابةِ وغير ذلك من أنواعِ العباداتِ، فلا يكفي في التوحيدِ، بل لا يكون إلا مشركاً والحالةُ هذه، كما هو شأنُ عُبّادِ القبورِ.

ثم ذكرَ المصنِّفُ آياتٍ تدلُّ على هذا فقال:

وقول الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الآية [الإسراء:٥٧].

قلت: يُبيِّن معنَى هذه الآيةِ التي قبلَها وهي قولُه: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ الآية [الإسراء:٥٦-٥٧].

قال ابنُ كثيرٍ: يقول تعالى: ﴿ قُلِ ﴾ للمشركينَ ﴿ادْعُوا =

= ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأندادِ، وارغبُوا إليهم فإنهم لا ﴿يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ﴾ ، أي: بالكلية، ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ أي: أن يُحوِّلوه إلى غيرِكم.

والمعنى: إن الذي يقدرُ على ذلك هو اللهُ وحدَه لا شريكَ له، قال العَوفيُّ عن ابنِ عباسٍ في الآية: كان أهلُ الشِّركِ يقولون: نعبدُ الملائكةَ والمسيحَ وعزيراً، وهم الذين يَدعُون، يعني: الملائكة وعزيراً[١].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الآية، رَوَى البخاريُّ عن ابنِ مسعودٍ في الآيةِ، قال: ناسٌ من الجِنِّ كانوا يُعبَدون فأَسلَمُوا[٢].

وفي رواية: كان ناسٌ من الإنس يَعبُدون ناساً من الجِنِّ فأسلَمَ الجِنُّ وتمسَّكَ هؤلاء بدينِهم[٣].

وقال السُّدِّيُّ، عن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ في الآية =

(١) قال سماحة الشيخ: أي: أهلُ الشرك هم الذين يدعون الملائكة وعزيراً.

(٢) أخرجه البخاري: التفسير (٤٧١٥).

(٣) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٣٨٠).

= قال: عيسى وأُمُّهُ وعُزَيرٌ[(١)]."[(٢)] [٢٦]

[شرح٢٦] ما دام لم ينصبها فإن «عيسى وأمه وعزير» أخبار لمبتدأ محذوف، يعني: الذي يعبدون، ويجوز: «عزيراً» بالنصب، يعني تفسير المعبودين، يعني: يعبدون عيسى وأمه وعزيراً، لكن ما دام ليس هناك ألف في عزير، فالإعراب: عيسى وأمه وعزير.

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٣٨٥).

(٢) ص٩١.

۞ وقال مُغيرةُ، عن إبراهيمَ: كان ابنُ عباسٍ يقول في هذه الآية: هم عيسى وعُزيرٌ، والشمسُ والقمرُ[١].

وقال مجاهد: عيسى وعزيرٌ والملائكةُ[٢][٣]. [٢٧]

[شرح٢٧] وهذا دخل على المشركين من جهة اليهود والنصارى؛ فأهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ يعظِّمون العزير والمسيح، العزير تعظمه اليهود، والمسيح تعظمه النصارى، ويعبدونهما، فدخل هذا على كفار قريش والعرب من جهتهم؛ لأنهم يخالفونهم، وقد اتصلوا بهم في اليمن وفي الشام وفي غير ذلك، فدخل عليهم عبادة المسيح وعبادة العزير من هذا الطريق*.

---

* س (من الشيخ): قوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ هل هذا الأمر يعني إباحة ذلك للناس؟ أو هل الأمر إذن لهم بالدعوة؟ فما معنى ﴿ٱدْعُواْ﴾ هل هو إذن لهم بالدعوة؟

أحد الطلبة: هذا استفهام إنكاري. =

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٣٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٣٨٧).

(٣) ص٩١.

....

= الشيخ: كلا، ليس باستفهام.

الطالب: هذا للتوبيخ والتهديد.

الشيخ: نعم، توبيخ وتهديد لهم، يعني: افعلوا ما شئتم فلن تفلتوا من الله؛ من باب ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت:٤٠]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩].

۞ وقولُه: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧] لا تتمُّ العبادةُ إلا بالخوفِ والرجاءِ.

وفي التفسيرِ المنسوب إلى الطبريِّ الحنفيِّ: ﴿قُلِ﴾ للمشركينَ يدعُون أصنامَهم دعاءَ استغاثةٍ ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] إلى غيرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الإسراء:٥٧] أي: الملائكة المعبودة لهم، يتبادرون إلى طلبِ القُربَة إلى الله فيرجون ﴿رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: مما يحذرُه كلُّ عاقلٍ.

وعن الضّحاك وعطاءٍ: أنهم الملائكةُ.

وعن ابن عباس: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ عيسى وأمه وعزيراً[(١)].

قال شيخُ الإسلام: وهذه الأقوالُ كلُّها حقٌّ؛ فإن الآيةَ تعمُّ مَن كان معبودُه عابداً لله، سواء كان من الملائكةِ أو مِن =

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٢٣٨٥).

= الجِنِّ أو من البشرِ.

والسَّلَفُ في تفسيرِهم يذكرون جنسَ المرادِ بالآية على نوعِ التمثيلِ، كما يقول التَّرجُمانُ لمن سأله: ما معنَى لفظِ الخُبزِ؟ فيُرِيهِ رغيفاً، فيقول: هذا. فالإشارةُ إلى نوعِه لا إلى عينِه، وليس مرادُهم بذلك تخصيصَ نوعٍ دونَ نوعٍ مع شمولِ الآيةِ للنوعينِ.

فالآيةُ خطابٌ لكلِّ من دعا دون الله مَدعوّاً، وذلك المدعوُّ يَبتغِي إلى الله الوسيلةَ، ويرجوُ رحمتَه، ويخافُ عذابَه، فكلُّ من دعا مَيتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، سواء كان بلفظِ الاستغاثةِ أو غيرِها، فقد تناولته هذه الآيةُ كما تتناول مَن دعا الملائكةَ والجِنَّ.

ومعلومٌ أن هؤلاء كلُّهم يكونون وسائطَ فيما يقدِّرُه اللهُ بأفعالِهم، ومع هذا فقد نهَى اللهُ عن دعائِهم وبَيَّنَ أنهم لا يملكونَ كشفَ الضُّرِّ عن الداعين ولا تحويلَه، لا يرفعونَه بالكليَّةِ، ولا يُحوِّلُونَه مِن موضعٍ إلى موضعٍ، كتغييرِ صِفَتِه أو =

= قدرِه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ فذُكر نكرةً تعمُّ أنواعَ التحويل.

فكلُّ مَن دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحينَ، أو دعا الملائكةَ أو دعا الجِنَّ، فقد دعا مَن لا يُغيثُه، ولا يملكُ كشفَ الضُّرِّ عنه ولا تحويلَه، انتهى[1]. [٢٨]

[شرح٢٨] هذا كلام عظيم من كلام الشيخ الإمام ابن تيمية، فالآية الكريمة نزلت فيمن يعبد غير الله ممن هو في نفسه عابد لله، فإذا كان عبادة من يعبد الله من الأنبياء والصالحين لا تنفع، وهي في ذاتها شرك، فعبادة غيرهم من الفجار والفساق والأصنام والأشجار أقبح وأقبح، فإن من هو موصوف بالصلاح، وموصوف بأنه يدعو الله ويرجوه ويخافه، لا يملك كشف الضر عن عابديه ولا تحويله من حال إلى حال، ولا من شخص إلى شخص، ولا من مكان إلى مكان، بل دعاؤهم له باطل.

فإذا كان هذا مع الأنبياء والصالحين، ومع العزير وعيسى =

---

(١) ص٩١-٩٢.

....

= وأمه، ومع الملائكة وما أشبه ذلك؛ فإن من سوى أولئك ومن هم دونهم من الأصنام والأشجار والأحجار والكفرة، عبادتهم أبعد عن الصواب، وأظهر في الباطل.

۞ وبنحوِ ما تقدَّم من كلامِ هؤلاء قال جميعُ المفسرينَ، فتبيَّن أن معنَى التوحيدِ وشهادةَ أن «لا إلهَ إلا اللهُ» هو ترك ما عليه المشركون من دعوةِ الصالحين، والاستشفاع بهم إلى الله في كشف الضُّرِّ وتحويلِه، فكيف ممن أخلصَ لهمُ الدعوةَ، وأنه لا يكفي في التوحيدِ دعواه(1). [٢٩]

[شرح٢٩] يعني: إذا كان تشريكهم شركاً، فالذي يخصهم بالدعاء وينسى الله أقبح، نسأل الله العافية.

---

(١) ص٩٢.

۞ والنطقُ بكلمةِ الشهادةِ من غيرِ مفارقةٍ لدينِ المشركينَ، وأن دعاءَ الصالحينَ لكشفِ الضُّرِّ أو تحويلِه هو الشركُ الأكبرُ. نبَّه عليه المصنِّفُ.

قال: وقولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية [الزخرف:٢٦-٢٧].

قال ابنُ كثيرٍ: يقول تعالى مُخبِراً عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ إمامِ الحُنفاءِ، ووالدِ مَن بُعِثَ بعدَه من الأنبياءِ، الذي تَنتسِبُ إليه قريشٌ في نسبِها ومذهبِها أنه تبرأ[1] من أبيه وقومِه في عبادتِهمُ الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨] أي: هذه الكلمةُ، وهي عبادةُ الله وحدَه لا شريكَ له، وخَلعُ ما سواهُ من الأوثانِ، وهي «لا إلهَ إلا اللهُ» أي: جعلَها في ذُريَّتِه، يَقتدِي به فيها مَن هداهُ اللهُ من ذريةِ إبراهيمَ عليه السلامُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ =

---

(١) قال سماحة الشيخ: أي: يخبر عنه أنه تبرأ، أو بأنه تبرأ.

= أي: إليها[1]. [30]

[شرح30] والمعنى أنه أوصاهم بها وحرضهم عليها؛ كما دل عليه القرآن الكريم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة:132].

(1) ص92.

۞ قال عكرمةُ ومجاهدٌ والضَّحاكُ وقَتادةُ والسُّديُّ وغيرُهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف:٢٨]: يعني: «لا إلهَ إلا اللهُ» لا يزالُ في ذريتِه مَن يقولُها(١). [٣١]

[شرح٣١] «وجعلها» تحتمل معنيين:

أحدهما: أن يعود إلى الله جل وعلا، أي: جعلها الله، وهذا من فضله ورحمته لذرية إبراهيم أن جعل الأنبياء فيهم وفي نسلهم، والمعنى في الجملة، أي: إلى آخر الدهر، فكما لا يخفى أنه في آخر الزمان يرفع القرآن، وتقبض أرواح المؤمنين، ويبقى البقية على الشرك بالله جل وعلا، فعليهم تقوم الساعة، فالمعنى أنه لا يزال فيهم في الجملة من يقولها ويعتقدها ويدين بها.

والمعنى الثاني: أن إبراهيم هو الذي جعل الوصية، أي: أوصاهم بها ودعاهم إليها وحرضهم عليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ [البقرة:١٣٢].

فالمقصود أن المعنى هو وجود هذه الكلمة، سواء أكان من =

---

(١) ص٩٢.

....

= جعل الله، وكل شيء من جعل الله ﷻ، حتى ولو وصى بها إبراهيم؛ فالله هو الذي أمر بهذا، وشرع له هذا، ويسر له هذا.

وفي هذا منقبة لإبراهيم من حرصه على هداية ذريته، وصلاحهم، وتمسكهم بالتوحيد، وفيه دلالة على أنه ينبغي التأسي بالأنبياء في هذا، وأنه على الإنسان أن يوصي أهله وذريته بالتمسك بتوحيد الله والإخلاص لله، وأن يثبتوا على هذا ويستمروا عليه حتى يلقوا ربهم.

۞ وقال ابنُ زيدٍ: كلمةُ الإسلامِ، وهو يرجعُ إلى ما قالَه الجماعةُ.

قلتُ: وروى ابنُ جريرٍ عن قتادةَ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٧] قال: خلقني(١). [٣٢]

[شرح٣٢] ابن زيد: هو ابن زيد بن أسلم ـ وأسلم مولى عمر ـ وهو مشهور؛ لأن زيد بن أسلم له ثلاثة أولاد: عبد الله بن زيد، وأسامة ابن زيد، وعبد الرحمن بن زيد، وكلهم من حملة العلم ومن الرواة، لكنهم ضعفاء في الرواية، فليس عندهم ضبط كامل، وعبد الرحمن هذا هو أشهرهم، وهو المعروف في التفسير، فله عنايةٌ به*.

---

* س: ما المقصود بأن إبراهيم تبرأ من أبيه؟

ج: المقصود أنه تبرأ من دينه، أي: الشرك، فتبرأ من ديانته ومن كفره بالله، ولم يتبرأ من إحسانه، وإنما أحسن إليه ورفق به كثيراً ودعا له واستغفر له كثيراً.

---

(١) ص٩٢.

۞ وعنه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] قال: إنهم يقولون: إن اللهَ ربُّنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] فلم يبرأ من ربه. رواه عبد بن حميد[1]. [٣٣]

[شرح٣٣] لأنهم يعبدون الله ويعبدون معه غيره، فتبرأ من معبوداتهم ما عدا الله، فقريش وغيرها، تعبد الله وتعبد غيره، فيحجون ويتصدقون ويعتمرون يرجون ثواب الله، فيعبدون الله بهذا، لكن لما كانت عبادتهم لله مخلوطة، فيها شرك، وفيها عبادة لله بطلت كلها؛ لأن الشرك إذا خالط العمل أبطله، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تبرأ من معبوداتهم كلها ما عدا المعبود بالحق، وهو الله وحده، فلا يتبرأ منه؛ لأنه المعبود بالحق ﷻ.

---

(١) ص٩٢.

۞ قلتُ: يعني أن قومَ إبراهيمَ يعبدون الله ويعبدون غيرَه، فتبرّأ مما يعبدون إلا اللهَ، لا كما يظن الجُهّالُ أن الكفارَ لا يعرفون اللهَ، ولا يعبدونه أصلاً.

وروى ابنُ جريرٍ وابنُ المنذرِ عن قتادةَ ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف:٢٨] قال: الإخلاصُ والتوحيدُ، فلا يزالُ في ذريتِه مَن يوحِّد اللهَ ويعبدُه[١].

فتبين بهذا أن معنَى «لا إلهَ إلا اللهُ» هو البراءةُ مما يُعبَد من دونِ الله، وإفرادُ الله بالعبادةِ، وذلك هو التوحيدُ، لا مجردُ الإقرارِ بوجودِ الله وملِكه وقدرتِه وخلقِه لكلِّ شيءٍ، فإن هذا يُقِرُّ به الكفارُ. وذلك هو معنَى قولِه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧] فاستثنى من المعبودِينَ ربَّه، وذكر سبحانَه أن هذه البراءةَ وهذه الموالاةَ هي شهادةُ أن «لا إلهَ إلا اللهُ»، قالَه المصنفُ[٢]. [٣٤]

[شرح٣٤] قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذه =

---

(١) أخرجه الطبري «في تفسيره» (٣٠٨١٩).

(٢) ص٩٢-٩٣.

....

= الموالاة، فهو تبرأ من معبوداتهم غير الله، ووالى ربه فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فوالاه بالعبادة وحده، والمحبة له وحده، والخضوع لعظمته، وتبرأ منهم؛ لاعتقاده بطلان ما هم عليه من الباطل؛ لأنهم معبودون بالباطل.

۞ قال: وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية [التوبة:٣١] الأحبارُ: هم العلماءُ، والرهبانُ: هم العُبّادُ.

وهذه الآيةُ قد فسَّرها رسولُ الله ﷺ لِعَدِيِّ بنِ حاتمٍ، وذلك أنه لما جاءَ مُسلِماً دخل على رسولِ الله ﷺ، وهو يقرأُ هذه الآيَةَ، قال: فقلتُ: إنهم لم يعبدُوهم، فقال: «إنهم حَرَّموا عليهم الحلالَ، وأحلُّوا لهمُ الحرامَ، فاتَّبَعوهُم، فذاك عبادتُهم إياهم»[١].

رواه أحمدُ، والترمذيُّ وحسَّنَه، وعبدُ بن حُمَيد، وابنُ سعد، وابنُ أبي حاتم، والطبرانيُّ، وغيرُهم من طُرُقٍ.

وهكذا قال جميعُ المفسرين[٢]. [٣٥]

[شرح٣٥] كذلك هذا الحديث يحتاج إلى جمع طرقه؛ لأن هذا حديث عظيم مهم، وفي بعض طرقه ضعف، وهو حديث مهم في =

---

(١) أخرجه الترمذي: تفسير القرآن (٣٠٩٥)، وانظر «تفسير الطبري» (١٦٦٤٦-١٦٦٤٨)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٠٠٥٧) و«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٣٥).

(٢) ص٩٣.

....

= تفسير الآية*.

* س: هل في بعض الطرق أنه جاء إليه كافراً في المسجد، وأخذه؟

ج: أصله موضوع، وبعضه في «الصحيح»[١]، لكن بهذه الألفاظ أنهم كانوا يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، هذا عند الترمذي وجماعة، وأصله أنه جاء من الشام بعد ما ذهبت إليه أخته ونصحته فذهب معها إلى النبي ﷺ حتى دخل بيته، فقال: أقرك على الإسلام... إلى آخره، ثم هداه الله.

س: هل كل طاعة تسمى عبادة؟

ج: الطاعات تختلف، فتارةً تكون عبادة، وتارة لا تكون عبادة، فمن أطاع إنساناً وهو يعتقد أنه يطيعه في كل شيء، فيما وافق الشرع وفيما خالف الشرع، فهذه عبادة، وإن أطاعه في المعروف، لا في المعصية، فهذه طاعة لله ﷻ، وإن أطاعه في المعصية من غير اعتقاد، فهذه معصية، وليست عبادةً.

فهي أقسام، ومن جعل الطاعة مطلقاً عبادةً للمطاع فقد غلط، فالمسلمون يطيعون الرسول فهل معنى ذلك أنهم عبدوه، أطاعوا الرسول لأن طاعته من طاعة الله، وهكذا طاعة ولاة الأمور في المعروف والمباح ليست عبادةً له.

س: الشيخ المودودي قال غير هذا. =

(١) انظر «مسند أحمد» (٤/ ٢٥٧).

....

= ج: كلا؛ هذا ليس صحيحاً، فقد كتبت إليه وكتب إلي، وبيَّن لي أن مقصوده الطاعة التي بها الاستحلال لما حرَّم الله، ممن يطيع الأمراء أو نحوهم فيما أمروه به، وإن كان مخالفاً لشرع الله، ويعتقد أن هذا جائز.

۞ قال السُّديُّ: استنصَحوا الرجالَ، ونبذوا كتابَ الله وراءَ ظهورِهم(١).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة:٣١] أي: الذي إذا حَرَّم شيئاً فهو الحرامُ، وما حلَّلَه حَلَّ، وما شَرَعَه اتُّبِعَ.

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تعالَى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: تعالَى وتقدَّسَ عن الشركاءِ والنُّظَراءِ والأضدادِ والأندادِ، لا إلهَ إلا هو، ولا ربَّ سواه.

ومرادُ المصنِّفِ ـ رحمه الله ـ بإيرادِ الآيةِ هنا أن الطاعةَ في تحريمِ الحلالِ، وتحليلِ الحرامِ من العبادةِ المنفيةِ عن غيرِ الله تعالى(٢). [٣٦]

[شرح٣٦] قوله: (المنفية عن غير الله) أي: الطاعة في التحليل والتحريم، أي: طاعة المخلوق من زوج أو أمير أو سلطان أو والد =

(١) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٤/ ١٣٥).

(٢) ص٩٣.

....

= أو كبير عشيرة أو ما أشبه ذلك في جعل الحرام حلالاً، وأن ما قاله الرئيس فهو حلال، وإن كان حراماً، وما قاله الرئيس أو الشيخ أو ما أشبه ذلك فهو حرام، وإن كان حلالاً في الشرع فهذه العبادة، ويكون هذا كفراً*.

---

* س: فإذا أجبره؟

ج: الإكراه شيء آخر.

س: لا يكون عبادةً.

ج: ليس في الإكراه عبادة، فالعبادة محلها القلب، فإن أكره على شيء كأن يشرب الخمر فلا شيء عليه في هذا، إنما الإثم على من أكرهه.

لكن إن استحل بقلبه هذا الشيء، لأن شيخه صاحب الطريقة أباحه له، يكون كفراً، أو لأن الرئيس قال له: افعل هذا، فقال: ما قاله الرئيس فهو حلال، وإن كان يخالف شرع الله، فهذا جعله إلهاً مع الله، أما إن أطاعه فقط، كأن قال له مثلاً: افعل كذا، فأطاعه، وهو يعلم أنه ليس بحلال، بل يعتقد أنه معصية، ولكنه أطاعه للهوى أو للفلوس، فلا يكون عبادةً، بل يكون معصيةً.

مثال ذلك: لو قال الأمير أو شيخ القبيلة أو أستاذه: اضرب فلاناً، وهو =

....

= يعرف أنه لا يستحق الضرب، فضربه وهو يعلم أنه لا يستحق الضرب، لكنه فعل حتى لا يخالف رئيسه، فهذه معصية، وأما أن يرى أن ما قاله رئيسه حلال وطيب ولو خالف شرع الله، فهذه عبادة.

س: بعض الناس الآن إن نهيتهم عن المحرمات مثل الأغاني، قالوا: لو كانت حراماً ما جاءت بها الدول...

ج: لأنه يعتقد فيهم أنهم متبعون للشرع، لا أنهم مشرعون، فمقصوده أنهم دول إسلامية تعظم الشرع، فهذا جاهل، فيبين له، ويعلم أنهم ليسوا بمعصومين، فالدولة والزوج والأب والأمير ليسوا معصومين، إنما يأتون بالحرام وبالحلال.

س: إنه يعرف أن البشر ليسوا معصومين.

ج: يبين له؛ لأنهم يعتقدون أن المشايخ لا يعصون، وهذا غلط، فلو كان أعلم الناس فقد يأتي المعصية؛ لأنه ليس معصوماً.

س: إن أكره إنسان آخر على شرب الخمر فهل يكون معاقَ؟

ج: المكره ليس بآثم.

س: وإن ألزمه؟

ج: كذلك، فالإثم على من ألزمه، فالقاعدة «المُكرِهُ هو الآثم، والمُكرَهُ ليس بآثم» حتى في الكفر ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦]. =

....

= س: ما حد الإكراه؟

ج: الإكراه معروف، الضرب والتهديد الشديد والسجن وما أشبه ذلك مما يظن أنه في الإمكان فعله.

س: وما حد الضرورة ؟

ج: ما لا بد له منه في معيشته وحياته، ونحو ذلك، فيضطر لهذا الشيء، بحيث يستطيع التصرف والأخذ والإعطاء ومحاجاة الكفرة ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩] فمن ليس له حاجة ليس بمضطر.

س: وإن كان في المسألة خلاف وحابى الدولة؟

ج: هذا لا يسمى مكرَهاً، هذا متبع للهوى.

۞ ولهذا فُسِّرَتِ العبادةُ بالطاعةِ، وفُسِّرَ الإلهُ بالمعبود المُطاعِ، فمن أطاع مخلوقاً في ذلك فقد عَبَدَه، إذ معنى التوحيدِ وشهادةِ أن «لا إلهَ إلا اللهُ» يقتضي إفرادَ الله بالطاعةِ، وإفرادَ الرسولِ بالمتابعةِ، فإنَّ مَن أطاعَ الرسولَ ﷺ فقد أطاعَ اللهَ.

وهذا أعظمُ ما يُبيِّنُ التوحيدَ وشهادةَ أن «لا إلهَ إلا اللهُ»؛ لأنها تقتضي نفيَ الشركِ في الطاعةِ، فما ظَنُّكَ بشِركِ العبادةِ؛ كالدعاءِ والاستغاثةِ والتوبةِ وسؤالِ الشفاعةِ وغيرِ ذلك من أنواعِ الشِّركِ في العبادةِ.

وسيأتي مَزيدٌ لهذا ـ إن شاءَ اللهُ تعالى ـ في (باب من أطاعَ العلماءَ والأمراءَ).

قال: وقولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ الآية [البقرة:١٦٥].

قال المصنِّفُ رحمه الله في «مسائله»: ومنها، أي: من الأمورِ المبيِّنةِ لتفسيرِ التوحيدِ، وشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، =

= آيةُ البقرةِ في الكفارِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وذكرَ أنهم يحبُّون أندادَهم كحبِّ الله، فدلَّ على أنهم يحبُّون اللهَ حُبّاً عظيماً، ولم يُدخِلهم في الإسلامِ، فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ حبّاً أكبرَ من حُبِّ الله؟ فكيف بمن لم يحبَّ إلا النِّدَّ وحدَه، ولم يُحبَّ اللهَ؟

قلت: مرادُه أن معنَى التوحيدِ، وشهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ هو إفرادُ الله بأصلِ الحبِّ الذي يَستلزمُ إخلاصَ العبادةِ لله وحدَه لا شريكَ له، وعلى قدرِ التفاضلِ في هذا الأصلِ، وما يَنبني عليه من الأعمالِ الصالحةِ، يكون تفاضُلُ الإيمانِ، والجزاءُ عليه في الآخرة، فمن أشركَ بالله تعالى في ذلك فهو المشركُ لهذهِ الآية.

أخبرَ تعالى عن أهلِ هذا الشِّركِ أنهم يقولون لآلهتِهم وهم في الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] ومعلومٌ أنهم مع ما ساوَوْهُم به في الخَلقِ والرزقِ والمُلكِ، وإنما ساوَوْهُم به في المحبَّةِ والإلهيةِ والتعظيمِ والطاعةِ، فمن قال: لا إلهَ إلا اللهُ =

= وهو مشرِكٌ بالله في هذه المحبَّةِ- فما قالها حقَّ القولِ وإن نَطَقَ بها؛ إذ هو قد خالفَها بالعملِ كما قال المصنفُ: فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ حبّاً أكبر مَن حبِّ الله؟

وسيأتي الكلامُ على هذه الآيةِ في بابِها ـ إن شاءَ اللهُ تعالى ـ(١). [٣٧]

[شرح٣٧] والمراد هنا حب العبادة، فإن الحب حبان: حب طبعي عادي ليس له تعلُّقٌ في العبادة، وهذا غير داخل في هذا المعنى، كحب الإنسان وما يهواه من مأكل ومشرب أو زوجة أو قرابة أو ما أشبه ذلك، غير الحب الذي أراده الله ﷻ، فإن حب العبادة يقتضي الخضوع للمحبوب، والذل له، وطاعة أوامره، وترك نواهيه ونحو ذلك.

فالمشركون أحبوا أندادهم حباً شارك حب الله، فصاروا يصرفون لهم بعض العبادة، ويدعون بعض أشياء تقرباً إليهم، فصاروا بهذا مشركين؛ لأنهم عبدوا الأنداد من أصنام أو أحجار أو أشجار أو كواكب لهذا السر؛ لأنهم يعتقدون فيهم أنهم يشفعون =

---

(١) ص٩٣-٩٤.

....

= لهم عند الله في كذا، أو يصرفون عنهم كذا، أو يعطونهم كذا من الأولاد أو ما أشبه ذلك، زعماً أن هذا من الله كرامة لهم، وأنهم مشفعون عند الله وإلى غير ذلك، ثم قد يقع في قلوبهم من المحبة لهذا الند الذي زعم أنه واسطة،فيجعله يحبه أكثر من حب الله؛ بل قد يقع في ذلك أنهم يحبون الند حباً كاملاً، وينسون الله ﷻ بالكلية، فيكون قلبه معلقاً بهذا الشفيع، وبهذه الواسطة، وينسى الله بالكلية ـ نعوذ بالله ـ فهذه حالهم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: شارك في المحبة؛ وإن لم يحب الند أكبر من حب الله؛ بل أحبه مع الله فقط سواء كان مساوياً أو أقل.

القسم الثاني: أحبهم أكثر.

القسم الثالث: ومنهم من أقبل على نده وصار يحبه حباً كاملاً، ونسي حب الله ﷻ وغفل عنه بالكلية؛ بسبب استيلاء حب من ألهه مع الله، سواءً كان النبي ﷺ أو البدوي، أو ولياً من الأولياء، أو صنماً، أو كوكباً، أو جنياً، أو غير ذلك، نسأل الله العافية.

۞ قال: في «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وكَفَرَ بما يُعبَدُ مِن دونِ الله، حَرُمَ مالُه ودمُه، وحسابُه على الله»(١).

قولُه: (في «الصحيح») أي: «صحيح مسلم» عن أبي مالكٍ الأشجعيِّ، عن أبيه، عن النبي ﷺ فذكره، وأبو مالكٍ: اسمُه: سعدُ بنُ طارقٍ، كوفيٌّ ثقةٌ، ماتَ في حدودِ الأربعين ومئةٍ، وأبوه طارقُ بنُ أشْيَمَ ـ بالمعجمةِ والمثناةِ التحتيةِ، وزنُ (أحمَر) ـ ابنِ مسعودٍ الأشجعيِّ: صحابيٌّ له أحاديثُ، قال مسلمٌ: لم يروِ عنه غيرُ ابنِه(٢)*.

---

* س: ماذا قصد بقوله: (في الصحيح)؟

ج: «الصحيح» المراد به «صحيح مسلم»، فقد يطلق الشيخ «الصحيح» يريد به «صحيح مسلم»، وقد يريد به «صحيح البخاري»، فالشيخ يتساهل في هذا اتكالاً على ما يعلمه أهل العلم، وعلى أن كلًّا منهما صحيح.

وذلك مثل ما في باب ما جاء في النذر لغير الله: هذا في «الصحيح» عن =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٢٣).

(٢) ص٩٤.

....

= عائشة؛ والمراد به «صحيح البخاري». لكن الغالب إذا قال: «الصحيح» المراد «صحيح مسلم»، ويعرف هذا من طريق الاستقراء.

وقد يكون المؤلف فعل ذلك اعتماداً على فهم القارئ، وقد يكون حين جمع الرسالة لم يكن عنده علم بأن ذلك هل هو في هذا أو في هذا؛ فقال: (في الصحيح)؛ لأنه جاز أن يكون في أحدهما.

۞ قولُه: (مَن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وكفرَ بما يُعبَدُ من دونِ الله) اعلمْ أن النبيَّ ﷺ في هذا الحديثِ عَلَّقَ عصمةَ المالِ والدمِ بأمرين:

الأول: قولُ لا إلهَ إلا اللهُ.

الثاني: الكفرُ بما يُعبَدُ من دونِ الله؛ فلم يكتفِ في اللفظِ المجرَّدِ عن المعنى؛ بل لا بدَّ من قولِها والعملِ بها.

قال المصنِّفُ: وهذا من أعظمِ ما يبيِّنُ معنَى لا إلهَ إلا اللهُ؛ فإنه لم يجعَلِ التَّلفُّظَ بها عاصِماً للدمِ والمالِ؛ بل ولا معرفة معناها مع التلفظِ بها؛ بل ولا الإقرارَ بذلك، بل ولا كونَه لا يدعُو إلا اللهَ وحدَه لا شريكَ له، بل لا يَحرُمُ دمُه ومالُه حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفرَ بما يُعبَدُ من دونِ الله؛ فإن شَكَّ أو تَردَّدَ لم يَحرُم مالُه ودمُه، فيا لَها من مسألةٍ ما أجلَّها! ويا لَه من بيانٍ ما أوضحَهُ! وحُجَّةٍ ما أقطعَها للمنازِعِ!"(1). [٣٨]

[شرح٣٨] هذا كلام جيد عظيم للمؤلف ـ رحمه الله ـ وهو واضح؛ =

---

(١) ص٩٤-٩٥.

....

= فإن قوله: (من قال: لا إلهَ إلا اللهُ وكفرَ بما يُعبَد من دون الله) واضح في ذلك، وهو مطابق لقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦].

فلا بد من الأمرين، والأمر الثاني مأخوذ من الأول، ومن نفس تفسير الأول، ومن معنى الأول؛ لأن قول: لا إله إلا الله يقتضي الكفر بالطاغوت، ويقتضي الإيمان بالله، وأنه رب العالمين، وأنه الإله الحق، وأنه المستحق للعبادة.

فالأمران مأخوذان من نفس الآية، من نفس الكلمة «لا إله إلا الله»؛ لكن على ما تقدم من أن النصوص يفسر بعضها بعضاً؛ فقد يجمل المعنى في آية أو في حديث، ثم يفسر في آخر، وكما تقدم في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:٢٧٧]، أتى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه داخل في الإيمان، وللإيضاح ولعظم شأن هذا، وأنه لا بد منه، وهكذا ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠]، وهكذا =

....

= ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣] تنبيهاً على بعض المعنى وإن كان داخلاً في الأول المجمل.

وهكذا قوله: (وكفر بما يعبد من دون الله) داخل في قوله: (من قال: لا إله إلا الله)، وهكذا قوله في الحديث الصحيح: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ»[1]. حتى يقولوها قولاً يشهد على المعنى، فيقولونها مُعتقِدين لمعناها، وأنها توجب إفراد الله بالعبادة، والبراءة من عبادة ما سواه، وليس مجرد قولها باللسان.

وهكذا بقية الأحاديث؛ فالأحاديث مثل الآيات يفسر بعضها بعضاً، ويبين بعضها بعضاً،ويشهد بعضها لبعض، فمن أخذ لفظاً دون لفظ فقد غلط؛ بل لا بد من أخذ المجموع والاعتماد على المجموع؛ لأن كل واحد يفسر الآخر.

فالذي مثلاً يأخذ بعض القرآن وينكر بعضه فهو كافر، وهكذا الذي يأخذ بعض السنة ويضيع بعضها كذلك؛ فكلاهما له حكم واحد. =

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٣٩٩)، ومسلم: الإيمان (٢٠).

....

= فالأولى أخذ السنة كلها، ولا بد من الإيمان بها كلها، فمن كان يصدق بقوله دون فعله أو بفعله دون قوله، أو يأخذ بما وافق أهواءنا دون ما خالف أهواءنا؛ فلم يؤمن بالسنة؛ كالذي أخذ بعض القرآن وترك بعضه؛ فلا بد من الإيمان بالجميع.

والكفر بالطاغوت معناه البراءة من عبادة غير الله، واعتقاد بطلانها، وأنها لا يجوز الأخذ بها ولا اعتقادها؛ بل يجب البراءة منها، وأن عبادة غير الله باطلة وكفر به سبحانه، وشرك به ـ جل وعلا ـ سواء كانت عبادة غير الله تتعلق بالأشخاص كالأولياء والأنبياء، أو تتعلق بالأصنام، أو تتعلق بالكواكب، أو بغير ذلك.

فالمقصود إنكار عبادة غير الله، والكفر بها، والبراءة منها، وموالاة الله ﷻ، والإيمان بأنه معبود بالحق دون كل ما سواه ـ جل وعلا ـ وفي رواية لمسلم وعند أحمد أيضاً قال: «مَن وَحَّدَ اللهَ وكفرَ بما يُعبَدُ من دونِ الله»[1] بدل «من قال: لا إلهَ إلا اللهُ»، فعبَّر عن قول: لا إله إلا الله، بالتوحيد؛ لأنه معنى لا إله إلا الله، والتوحيد =

(١) مسلم: الإيمان (٢٣)، وأحمد (٣/ ٤٧٢).

....

= هو توحيده بالعبادة، وإفراده بها ﷻ.

فالأقوال والنصوص يفسر بعضها بعضاً، ولأن الرواة يعلمون ذلك، فقد يعبر الواحد منهم عن الكلمة بمعناها، فقول من روى (من وَحَّدَ الله) عبر عنها بالمعنى، وهكذا قوله في حديث ابن عمر عند مسلم: «بني الإسلام على خمسة، على أن يوحَّد الله»[١]، فهذا في اللفظ الآخر: «شهادة أن لا إله إلا الله»[٢]. فمن روى «على أن يُوَحَّدَ اللهُ» فقد رواها بالمعنى، وكذلك في الرواية الأخرى: «على خمس، على أن يُعبَدَ اللهُ ويُكفَرَ بما دونَه»[٣]، رواه بالمعنى أيضاً.

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (١٦) (١٩).

(٢) أخرجه البخاري: الإيمان (٨)، ومسلم: الإيمان (١٦).

(٣) أخرجه مسلم: الإيمان (١٦) (٢٠).

۞ قلتُ: وقد أجمعَ العلماءُ على معنَى ذلك؛ فلا بدَّ في العصمةِ من الإتيانِ بالتوحيدِ، والتزامِ أحكامِه، وتَركِ الشِّركِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [الأنفال:٣٩] والفتنةُ هنا: الشِّركُ؛ فدَلَّ على أنه إذا وُجدَ الشِّركُ فالقتالُ باقٍ بحالِه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة:٣٦][1]*.

---

* س: هناك لفظ «حتى يعرف الله» يحتج بها من يقول: التوحيد هو المعرفة، فما صحة هذه اللفظة؟

ج: لا أتذكرها؛ لكن لو صح فيها الحديث فهي المعرفة التي تتضمن العمل؛ فالنصوص - مثلما تقدم - يفسر بعضها بعضاً؛ فالمعنى حتى يعرفوا الله بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وهذا لو صح اللفظ؛ فالروايات المشهورة المعروفة: «حتى يقولوا»[2]، و«حتى يشهدوا»[3].

أما المعرفة وحدها فلا تكفي؛ فإبليس يعرف الله؛ بل هو من أشد =

(١) ص٩٥.

(٢) أخرجه البخاري: الزكاة (١٣٩٩)، ومسلم: الإيمان (٢٠).

(٣) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

....

= الناس معرفةً بالله، فهل نفعه ذلك؟! وفرعون يعرف الله ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] وهو من أكثرهم كفراً؛ فالمعرفة وحدها لا تكفي، واليهود يعرفون الله وهم من أشد الناس كفراً؛ فالمعرفة من دون الإيمان والتزام العمل لا تنفع شيئاً.

۞ وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٥] فأمرَ بقتالِهم على فعلِ التوحيدِ وتَركِ الشِّركِ، وإقامةِ شعائرِ الدِّينِ الظاهرةِ، فإذا فعلوها خُلِّيَ سبيلُهم(١). [٣٩]

[شرح٣٩] على فعل التوحيد؛ يعني: على إيجاد التوحيد، حتى يوجِدوا التوحيد، يقاتَلون حتى يفعلوا أعمال التوحيد وحتى يوجدوا التوحيد، وحتى يوحدوا الله.

---

(١) ص٩٥.

۞ ومتى أبَوْا عن فِعلِها أو فعلِ شيءٍ منها، فالقتالُ باقٍ بحالِه إجماعاً، ولو قالوا: لا إلهَ إلا اللهُ.

وكذلك النبيُّ ﷺ علَّقَ العصمةَ بما علَّقَها اللهُ به في كتابه؛ كما في هذا الحديث؛ وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يَشهدُوا أن لا إلهَ إلا اللهُ، ويُؤمِنُوا بي وبما جئتُ به؛ فإذا فعلُوا ذلكَ، عصمُوا مني دماءَهُم وأموالَهم، إلّا بحقِّها، وحسابُهم على الله»(١).(٢)[٤٠]

[شرح٤٠] قوله: (ويُؤمنُوا بي وبما جئتُ به) هذا لفظ عظيم مهم، مفسر للنصوص الأخرى، فلا بد من الإيمان به وبما جاء به مع القول، فلفظ (حتى يشهدوا) وهنا (حتى يؤمنوا) ينبه عليه الصلاة والسلام بأن القول لا يكفي حتى يحصل الإيمان؛ ولهذا فالمنافقون يقولون، ولكن لما كان الإيمان معدوماً في قلوبهم غير موجود لم ينفعهم قولها، وصاروا من أكفر الناس، وصاروا في الدرك الأسفل من النار ـ نعوذ بالله ـ فلا بد من قولها، ولا بد من الإيمان بما دلت =

---

(١) أخرجه مسلم: الإيمان (٢١).

(٢) ص٩٥.

....

= عليه من المعنى الذي جاء به عليه الصلاة والسلام*.

*** س: هل الحديث عام في جميع الناس، أم هو خاص بالرسول ﷺ؟**

ج: نعم، عام ولكن من أدى الجزية يوقف عنه، فمن أداها من أهلها كاليهود والنصارى والمجوس ـ عند الجميع، أو عموم الكفار عند بعض أهل العلم ـ فمن أدى الجزية من هؤلاء يستثنى من النصوص الأخرى المطلقة، فهذه النصوص المطلقة تقيد بنصوص أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة:٢٩] وكذا من مثلهم.

س: يقول: فأمر بقتالهم على فعل التوحيد وترك الشرك وإقامة شعائر الدين الظاهرة، فإذا فعلوها خُلِّيَ سبيلُهم، ومتى أبوا عن فعلها أو فعل شيء منها فالقتال باق، بحاله إجماعاً.

ج: نعم، فلو قالوا: نعبد الله؛ ولكن لا نصوم رمضان، يقاتلون، أو قالوا: نفعل ذلك؛ ولكن لا نحج، ولو مع الاستطاعة، يقاتلون إذا أصروا على هذا.

كذلك إذا أبوا إلا الشرك يقاتَلون حتى يعبدوا الله وحده ويدعوا الشرك، نسأل الله العافية.

فلو كان هناك جهاد صالح ـ الآن ـ يجب أن تقاتل البلاد العربية كلها حتى تقيم توحيد الله، وحتى تحكم شريعة الله، ولكن أين الجهاد؟!! الله =

....

= المستعان، فالشرك موجود، وطاعة الحكام من دون الله موجودة.

فهذه الطوائف يجب أن تقاتل في مصر، والشام، والعراق، وكل مكان عطلت فيه الشريعة؛ فيجب أن تقاتل حتى تقيم الشريعة، فإما هذا، وإما هذا، إما أن تقام الشريعة وأنتم على بلادكم وعلى أموالكم وعلى كراسيكم، فمطلوبنا مثل ما قال الصحابة للروم وفارس، مطلوبنا أن تقيموا أمر الله، فإذا أقمتم أمر الله رجعنا عنكم.

۞ وفي «الصحيحين» عنه قال: لما تُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وكَفَرَ مَن كَفَرَ من العربِ فقال عمرُ بنُ الخطابِ لأبي بكرٍ: كيف تُقاتِلُ الناسَ وقد قال رسولُ الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلهَ إلا اللهُ، فمن قال: لا إلهَ إلا اللهُ، فقد عَصَمَ مني مالَه ونفسَه إلا بحقِّه، وحسابُه على الله»؟

فقال أبو بكر: والله لأُقاتِلَنَّ مَن فرق بين الصلاةِ والزكاةِ، فإن الزكاةَ حقُّ المالِ، والله لو مَنعُوني عِقالاً كانوا يؤدونَه إلى رسولِ الله ﷺ لقاتلتُهُم على منعِه. فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيتُ اللهَ قد شرحَ صدرَ أبي بكرٍ للقتالِ فعرفتُ أنه الحقُّ. لفظُ مسلمٍ[١].[٢] [٤١]

[شرح٤١] وهذا أمر أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، وهو قتال أهل الردة وقتال مانعي الزكاة، وذلك أن النبي ﷺ عندما توفي حصل عند الناس ـ يعني: عند كثير من الناس ـ ريبة =

---

(١) أخرجه البخاري: الزكاة (١٣٩٩)، ومسلم: الإيمان (٢٠).

(٢) ص٩٥.

....

= وشك؛ لماذا يموت رسول الله ﷺ وهو خاتم الأنبياء؟ وهذا سببه الجهل، فقام فيهم الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وخطب الناس، وذكرهم بالله ـ جل وعلا ـ وبين لهم أن محمداً ﷺ كالرسل السابقين كما ماتوا يموت، وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً بشر قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وتلا قوله سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ الآية [آل عمران:١٤٤].

وكأن الناس ما سمعوها إلا ذاك الوقت، وكان عمر قد تكلم في الناس، وظن أن ما قيل من موت النبي ﷺ أنه غشية، وأنه لم يمت، وأنه سوف يفعل كذا ويفعل كذا ويقتل أقواماً ويفعل كذا، وظن عمر رضي الله عنه وأرضاه أن موت النبي ﷺ لم يحصل ذلك الوقت، فهو يعلم أن محمداً سيموت عليه الصلاة والسلام، ويقرأ الصحابة وغيرهم ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

وقد مات الرسل قبله كلهم عليهم الصلاة والسلام، فالذي أصاب الرسل سوف يصيبه والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ =

....

= ﴿مِّن قَبۡلِكَ ٱلۡخُلۡدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأنبياء:٣٣-٣٤].

فالموت لا بد منه، ولكن ظن بعض الصحابة أن هذا لم يحن وقته، وأنه هناك بقية، فلما أشكل هذا على بعض الناس أخذهم الصديق وأزال الشبهة، فكأن الناس ما سمعوا الآية إلا حين تلاها الصديق رضي الله عنه وأرضاه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية [آل عمران:١٤٤] خرج الناس كل يتلوها في طريقه وفي بيته وفي غير ذلك لما فيها من العزاء.

ثم إن بعض العرب بعد ذلك حصل عندهم أيضاً ريب وشك، وقالوا: لو كان نبياً لم يمت، ثم تنوعوا في الردة، فمنهم من صدق مسيلمة في دعواه الرسالة، هذا كفر بالله كفراً أكبر...

«لا إله إلا الله» فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. فعند ذلك قال الصديق: أليست الزكاة من حق «لا إله إلا الله»، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة.

فقال عمر عند ذلك: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدري =

....

= لمثل ما شرح صدر أبي بكر، فعرفت أنه الحق.

وعند ذلك أجمع الصحابة ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ على تصديق الصديق فيما ذهب إليه، وعلى موافقته، وأنه لا بد من إتيان حق «لا إله إلا الله»، وأن من قالها من المرتدين وغيرهم لا ينفعه ذلك حتى يؤدي حقها، فيكذبوا مسيلمة، ويعلموا أن محمداً خاتم النبيين، وحتى يؤدوا الزكاة، وحتى يلتزموا حق الله في الإسلام، وإلا فلا.

فلهذا شرع الصديق في جمع الجيوش وإرسال السرايا لقتال المرتدين ودعوتهم إلى دين الله ﷻ ونجح في ذلك غاية النجاح ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ ووافقه الصحابة كلهم على هذا، وصمموا على القتال، وأمروا الأمراء، وجيشوا الجيوش لقتال الردة كما هو معلوم في التاريخ الإسلامي.

والمقصود من هذا كله أن يبين الصديق وغيره من الصحابة أن قول: «لا إله إلا الله» لفظاً لا يكفي، ولا ينجي أهله، ولا ينفعهم في الدنيا، ولا في الآخرة، بل لا بد من قولها مع العمل، والتصديق =

....

= والإيمان بما دلت عليه من توحيد الله، والإخلاص له.

ولا بد من أداء حقوقها من صلاة وزكاة وغير ذلك، وإلا أجري على من تأخر عن الصلاة ما يجب عليه من القتل، وأجري التعزير على من منع الزكاة، أو ترك الصيام، أو ترك الحج مع القدرة، مع إقامة الحجة عليهم؛ وإلى غير ذلك.

فلا بد من إقامة حق الله في أرض الله على من تعدى حدود الله ﷻ، وهذا هو الذي يزيل الإشكال، ويوضح الحق في كل من قد يعتريه شبهة في هذا المقام.

وأكثر الناس عندهم فقه في الدين، ولكن مع الظواهر، وليس عندهم نفوذ في المعاني والحقائق، ولهذا تجد الآن وقبل الآن من أزمان طويلة، يقولون: «لا إله إلا الله»، وينتسبون إلى الإسلام، ثم هم يعبدون غير الله، عند القبور، وعند غير القبور.

فتجد من يعبد غير الله، ويصلي ويسجد لصاحب القبر، ويطوف بقبره، ويدعوه ويستغيث به، ويقول: مدد، وربما ناداه من بعيد ومن مسافات طويلة، ويشير إلى جهته، ويقول: مدد مدد يا =

....

= عبد القادر، مدد مدد يا فلان، فيستغيث به من بعيد، ويدعوه، ويلجأ إليه، ويسأله قضاء حاجته، وتفريج كروبه، وهو يقول: «لا إله إلا الله»، فلا يعرف أن هذه الكلمة تقتضي أن يعبد الله وحده، وأن يدعوه وحده، وأن يتوجه إليه بقلبه وقالبه، وأن ينزل حاجاته به ﷻ.

فلم يعرف هذه الأمور؛ لأنه نشأ في جاهلية وبعد عن حقائق الإسلام؛ حتى صار إلى ما صار إليه من جهل بالله وبدينه وعبادة لغيره ﷻ.

وهذا هو الغالب الآن على المنتسبين للإسلام في غالب الأمصار، فما عرفوا معنى «لا إله إلا الله» كما ينبغي، والمتبصرون منهم قليل.

ومن عرف هذا ودعا إليه وأنكر على عباد القبور ما هم عليه من الباطل فهؤلاء هم القليل جداً، وأغلب الناس الآن تجده عالماً ويحمل الدكتوراه ويحمل علوماً كثيرة في أنواع من العلوم، ولكنه أجهل الناس بتوحيد الله وبمعنى «لا إله إلا الله»، ولا حول ولا =

....

= قوة إلا بالله*.

* س: هل من الحذر أن يقتني المسلم السلاح لديه؟

ج: ولا سيما إذا دعت الحاجة إليه، ومن الحذر التدرب على حمل السلاح، وعلى استعماله؛ لأنه من إعداد القوة، وإذا كان هناك خوف من أن يختل الأمن، فلا شك أن أخذ السلاح من الحيطة، وأما إذا كان الأمن سابغاً فالحمد لله، ولكن يتدرب حتى إذا ما احتاج إليه حمله؛ لأن هذا من إعداد القوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠].

۞ فانظُر كيف فَهِمَ صِدِّيقُ الأُمةِ أن النبيَّ ﷺ لم يُرِد مجرَّدَ اللفظِ بها من غير إلزام لمعناها وأحكامِها.

ومن إعداد القوة التدرب البدني على السلاح المتنوع حتى إذا حمله استطاع أن يستعمله في جهته، أما السلاح وكيف يستعمله فلا بد من التدرب البدني على أنواع السلاح، وأنواع الأخطار التي قد يأتي بها العدو حتى يقابلها بما يضادها، والله المستعان.

فكان ذلك هو الصوابُ، واتفقَ عليه الصحابةُ، ولم يختلف فيه منهُمُ اثنان، إلا ما كان من عُمرَ حتى رجعَ إلى الحقِّ، وكان فَهمُ الصدِّيقِ هو الموافقُ لنصوصِ القرآنِ والسُّنَّةِ"[1]. [٤٢]

[شرح٤٢] وفي هذا المقام ظهر تدين الصديق على غيره من الصحابة، وظهر فضل علمه ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ لما اختلف الناس وحصل منهم الريبة، ورأى النبي ﷺ قد توفي، فقال: بأبي =

(١) ص٩٥-٩٦.

....

= أنت يا نبيَّ الله، لا يجمع الله عليك موتتين، أمَّا الموتة التي كتبها الله عليك فقد متَّها(١).

يبين بذلك بطلان ما يظنه بعض الناس من أن هذه غشية وليست موتة، وأن هذه هي الموتة التي كتبها الله عليه، وأن هذا الموت.

ثم لما شك الناس في هذا المقام وحصل عند عمر وعند غيره من باب التردد صار هو في غاية الثبات يبين للناس موت النبي ﷺ، ويتلو الآية الكريمة ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٤٤]، ويبين ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ أن العبادة لله وحده، فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً بشر وقد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

وهذا الثبات العظيم في هذا المقام الذي يزلزل الجبال، وهو موت النبي ﷺ.

ثم لما تنازعوا في قتالهم ثبت الثبوت العظيم وصمد حتى =

(١) أخرجه البخاري: الجنائز (١٢٤١، ١٢٤٢).

....

= رجعوا إلى قوله، وعرفوا صحة ما ذهب إليه رضي الله عنه وأرضاه، وهذا كله يبين فضله وعلمه وبصيرته وبلوغ علمه إلى الغاية من جهة الأصول والتقعيد لما جاءت به الشريعة، والله المستعان.

۞ وفي «الصحيحين» أيضاً عن عبدِ الله بنِ عمرَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أُمِرتُ أن أُقاتِلَ الناسَ حتى يَشهدُوا أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمداً رسولُ الله، ويُقيمُوا الصلاةَ، ويُؤتُوا الزكاةَ، فإذا فعلُوه عَصمُوا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها، وحسابُهم على الله»(١).

فهذا الحديثُ كآيةِ «براءة» بُيِّنَ فيه ما يُقاتَل عليه الناسُ ابتداءً، فإذا فعلُوه وجبَ الكَفُّ عنهم إلا بحقِّه، فإن فعلُوا بعدَ ذلك ما يناقضُ هذا الإقرارَ والدخولَ في الإسلام وجبَ القتالُ حتى يكونَ الدِّينُ كلُّه لله.

بل لو أَقرُّوا بالأركان الخمسةِ وفعلُوها، وأَبَوْا عن فِعلِ الوُضوءِ للصلاةِ ونحوه، أو عن تحريم بعض محرماتِ الإسلامِ كالربا أو الزنى أو نحو ذلك، وجبَ قتالُهم إجماعاً، ولم تعصِمهُم «لا إلهَ إلا اللهُ»، ولا ما فعلُوه من الأركانِ.

وهذا من أعظمِ ما يُبيِّنُ معنَى «لا إلهَ إلا اللهُ»، وأنه ليس =

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

= المرادُ منها مجرَّدَ النُّطقِ، فإذا كانت لا تعصِمُ مَن استباحَ مُحَرَّماً، أو أبىَ عن فعلِ الوُضوءِ مثلاً، بل يُقاتَلُ على ذلك حتى يفعلَه، فكيف تعصمُ مَن دان بالشِّركِ، وفَعَلَه، وأحبَّه، ومدحَه، وأثنى على أهلِه، ووالى عليه، وعادى عليه، وأبغضَ التوحيدَ الذي هو إخلاصُ العبادةِ لله، وتبرّأَ منه، وحاربَ أهلَه، وكَفَّرَهم، وصَدَّ عن سبيلِ الله، كما هو شأن عُبّادِ القبورِ[1]. [٤٣]

[شرح٤٣] ويسمون التوحيد تنقصاً للصالحين وتنقصاً للأنبياء، أو يسمونهم خارجيين أو وهابيين على حسب الألقاب التي يعرفونها، كل طائفة لها جنس ولها طريقة في التنفير عن التوحيد، فتارة يقولون: هذا ما يحب الصالحين، أو هذا ما يحب الأنبياء؛ كما هي الطريقة المعروفة قديماً.

ثم إن عرفوا أحداً يدعو إلى هذا وينتسب إليه قالوا هذا لقبه، فإن كان وهابياً قالوا وهابي، وإن كان من جهة تكفير من كفر بالله أو صد عن سبيل الله قالوا: هذا خارجي، على حسب ما يعرفون، =

---

(١) ص٩٦.

....

= فكل يتكلم بما يعرف؛ من باب التنفير عن الحق، ومن باب الدعوة إلى الباطل والثبات عليه*.

*** س: بمناسبة أنكم شربتم ماءً ـ وكان الشيخ رحمه الله شرب هنا ماءً ـ يجري عند أكثر الناس إذا شرب أحدهم أن يقال له: هنيئاً مريئاً، وهكذا، فهل ورد فيه شيء عن السلف الصالح؟**

ج: ما هو بشيء، بل هو من باب الدعاء.

س: أقصد الالتزام.

ج: هذا مما تنازع فيه بعض الإخوان، فيقال: إن الشيخ عبد الرحمن بن حسن وجماعة كانوا يكرهون التزام هذا الشيء؛ لأنه لم ينقل، وكان الشيخ عبد اللطيف وجماعة يقولون: هذا من باب الدعاء، وليس من باب السنن، من باب الدعاء لمن شرب شيئاً أو تيسر له نعمة من النعم أن يقال: هنيئاً مريئاً، أو ما أشبه ذلك.

وكان الشيخ عبد اللطيف يقول لمن شرب عنده: هنيئاً خلافاً لزيد، ولا يقول: خلافاً لأبي؛ من باب التأدب مع أبيه، خلافاً لزيد بن محمد صاحب الحديث القاضي. فما لا يلتزمه الإنسان، بل يفعله بعض الأحيان، فهو من باب الدعاء. =

....

= س: في الحديث «إذا شرب أحدكم قائماً فليستقئ»[١].

ج: الظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذا منسوخ؛ لأن الرسول ﷺ شرب قائماً مرات كثيرة ولم يستقئ، وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكثر الناس امتثالاً، فلعله منسوخ، أو وهم من بعض الرواة.

س: بعض الناس يقول: إنه لا يجوز الشرب قائماً.

ج: لا، غلط، شرب النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قائماً وقاعداً[٢]. والشرب قائماً جائز، ولكن قاعداً أفضل؛ لأنه ثبت عن الرسول ﷺ هذا وهذا. والقاعدة أنه إذا أمر بشيء ثم فعل خلافه فهو يدل على أن الأمر ليس للوجوب بل للأفضلية.

س: التدرب على السلاح أو الأمور التي فيها شيء من أسباب القوة والتي لا يمكن أن يعرفها المسلم إلا من طريق الكفار، فهم الذين يدربونه، ولا يمكن أن يعلموا المسلم إلا إذا اكتسب شيئاً من أخلاقهم، فهل هذا يسوغ شرعاً؟

ج: ليس بلازم، فما يجوز إلا أن يدربوه على السلاح وأن يستعين بهم بالسلاح، مثلما يستفيد من صناعاتهم، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فالحمد لله =

---

(١) رواه مسلم بنحوه (٢٠٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي: الأشربة (١٨٨٣).

....

= لهم دينهم وله دينه.

فإن دعت الحاجة إلى أن يدربوا ولا يوجد مسلمون يدربون، فهذا من باب الاستعانة بالشيء الذي عرفوه مثلما استعار النبي ﷺ السلاح من كفار قريش، قالوا: أغصباً يا محمد، فقال: «بل عارية مضمونة»[١]. فاستعان به على قتال أهل الطائف، ولم يمنعه من ذلك كونهم كفاراً.

فالحاصل أنه إذا استعان بشيء من أمور الكفرة للحاجة فلا بأس، فالتدرب من الاستعانة، فإذا لم يكن في المسلمين من يعرف هذا السلاح، فيأتون بالكافر بصفة مؤقتة ليعلم الناس هذا السلاح حتى يستفيدوا ويعرفوا فلا حرج.

وإن قدرنا أنه محرم فهو من باب ارتكاب أدنى المفسدتين لاجتناب أكبرهما، فجهل المسلم بالسلاح الذي يقاتل به عدوه مفسدة كبرى، وتقريب الكافر واستئجاره ليعلم ويفيد الناس، فهذا وإن كان فيه بعض المفسدة، لأن الناس قد يتعلمون من أخلاقهم، أو قد يعرفون بعض العورات أو كذا، لكنها مفسدة صغرى بالنظر إلى ما يترتب على التعليم من المصالح الكبرى.

وأيضاً من باب استئجار النبي ﷺ عبد الله بن أريقط الديلي للدلالة =

---

(١) أخرجه أبو داود: البيوع (٣٥٦٣).

....

= على المدينة لما احتاج إليه النبي ﷺ، وكان مشركاً على دين قريش[١]، ولكن لما عرف أنه ناصح، وأنه يريده في الطريق استأجره النبي ﷺ، وذهب معه إلى المدينة للحاجة.

س: في حال أنه لا بد من دخول إحدى المدارس العسكرية، ولها نظامها وما تحتوي عليه من ناحية الصور والإشارة بالأكف واللباس المخالف للشرع والإلزام بحلق اللحى وغير ذلك؛ فما حكم ذلك؟

ج: والله ما فيها إلزام للناس بحلق اللحى، ثم لو قدرنا أن الإنسان قد يبتلى بمثل هذه الأشياء فلينظر إلى المفاسد أيها أكبر، فلينظر إلى ارتكاب الدنيا لتفادي الكبرى؛ على القاعدة الشرعية.

فإذا كان الأمر داعياً إلى التدرب، ولا حيلة إلا من طريق المدارس العسكرية فلا مانع، وليلتزم بالحق الذي يستطيعه، حتى يعرف السلاح الذي ينبغي أن يقاتل به عدوه.

وإذا وجد من المسلمين من يقوم بهذا كفى، وقد وجد الآن من يكفي لهذا، فمن المسلمين من تدربوا وعرفوا، فالإنسان الذي يكون في الحالة المناسبة للتدرب وقد تكون هناك ساحات في الصحراء، ويطلب الضباط الجيدون والناس العالمون الطيبون ليدربوا الشباب، فليس النظام الخاص الذي أشرت إليه بلازم، والله المستعان.

---

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٩٧.

۞ وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ مَن قال: «لا إلهَ إلا اللهُ» وهو مشركٌ أنه يُقاتَلُ حتى يأتيَ بالتوحيد.

ذكر التنبيه على كلام العلماء في ذلك؛ فإن الحاجةَ داعيةٌ إليه لدفع شُبَهِ عُبّادِ القبورِ في تعلُّقِهم بهذه الأحاديث وما في معناها؛ مع أنها حجةٌ عليهم بحمد الله، لا لهم[1]. [٤٤]

[شرح٤٤] المصيبة هي سوء الفهم عن الله، إن ما أصاب الناس ودهاهم سوء الفهم عن الله؛ حتى ظنوا ما هو حجة عليهم حجةً لهم، وتعلقوا بظواهر بعض الأحاديث التي هي حجة عليهم لا لهم، في شركهم وكفرهم بالله، وتعلقهم بالأنبياء والأولياء وغير ذلك، ولو عقلوا لفهموا الحق، ولكن المصيبة عدم العقل وعدم الفهم.

---

(١) ص٩٦.

۞ قال أبو سُليمانَ الخطابيُّ في قولِه: «أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولُوا: لا إلهَ إلا اللهُ»(١): معلوم أن المرادَ بهذا أهلُ الأوثانِ دونَ أهلِ الكتابِ؛ لأنهم يقولون: «لا إلهَ إلا اللهُ» ثم يُقاتِلون، ولا يُرفَع عنهم السيفُ(٢). [٤٥]

[شرح٤٥] أبو سليمان الخطابي هذا صاحب «معالم السنن» على «سنن أبي داود»، واسمه حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، من أهل المئة الرابعة*.

وقوله: «ولا يرفع عنهم السيف» أي: أهل الكتاب، ومقصود الخطابي في قول النبي ﷺ: أن عباد الأوثان هؤلاء الذين يمتنعون من قول: «لا إله إلا الله»، إذا قالوها كف عنهم حتى ينظر في أمرهم، ويحكم بإسلامهم، أما أهل الكتاب فهم يقولونها، ولا يمنعهم ذلك، ولا يرفع عنهم السيف حتى يلتزموا بنبوة محمد ﷺ والدخول في دينه، أو يعطوا الجزية، يعني: أهل الكتاب اليهود والنصارى.

---

* س: حَمْد أم حَمَد؟ =

---

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

(٢) ص٩٦.

....

= ج: حَـمْد بالتسكين؛ وهو أول من نعرفه يسمى بحَمْد أو حَـمَد، فالمشهور في الأسماء القديمة أحمد، ولكن قد يقال:حَـمْد، وقد يقال: حَـمَد، لكن في الشعر حَـمْد كما ذكره العراقي، على وجه التسكين؛ لأن الشعر لا يستقيم إلا بالتسكين.

۞ وقال القاضي عِيَاض: اختصاصُ عَصمِ المالِ والنفسِ لمن قال: «لا إلهَ إلا اللهُ»، تعبير عن الإجابةِ إلى الإيمانِ، وأن المرادَ بذلك مشرِكُو العربِ وأهلِ الأوثانِ ومن لا يُوحِّد، وهم كانوا أولَ من دُعِيَ إلى الإسلام، وقُوتِل عليه، فأما غيرُهم ممن يقرُّ بالتوحيدِ فلا يُكتَفَى في عصمتِه بقوله: «لا إلهَ إلا اللهُ» إذ كان يقولها في كفرِه، وهي من اعتقادِه، فلذلك جاء في الحديثِ الآخر: «ويُقيمُوا الصلاةَ ويُؤتُوا الزكاةَ»[1].

وقال النوويُّ: لا بُدَّ مع هذا من الإيمانِ بجميع ما جاءَ به رسولُ الله ﷺ، وكما جاءَ في الروايةِ الأُخرى: «ويُؤمنوا بي وبما جئتُ به»[2].

وقال شيخُ الإسلامِ لما سُئلَ عن قتالِ التتارِ مع التمسُّك بالشهادتينِ، ولِما زعموا من اتِّباع أصلِ الإسلامِ، فقال: كلُّ طائفةٍ ممتنعةٌ من التزامِ شرائعِ الإسلامِ الظاهرةِ المتواترةِ من هؤلاء القومِ أو غيرِهم، فإنه يجبُ قتالُهم حتى يلتزموا =

---

(١) أخرجه البخاري: الإيمان (٢٥)، ومسلم: الإيمان (٢٢).

(٢) أخرجه مسلم: الإيمان (٢١).

= شرائعَه، وإن كانوا مع ذلك ناطقينَ بالشهادتينِ، ملتزمينَ بعضَ شرائِعه، كما قاتلَ أبو بكر والصحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ مانعي الزكاةِ، وعلى ذلك اتفقَ الفقهاءُ بعدَهم.

قال: فأيُّما طائفةٌ ممتنعةٌ؛ امتنعَت عن بعضِ الصلواتِ المفروضاتِ، أو الصيامِ، أو الحجِّ، أو عن التزامِ تحريمِ الدماءِ، أو الأموالِ، أو الخمرِ، أو الميسرِ، أو نكاحِ ذواتِ المحارمِ، أو عن التزامِ جهادِ الكفارِ، أو ضربِ الجزيةِ على أهلِ الكتابِ، أو غيرِ ذلك من التزامِ واجباتِ الدِّينِ، أو محرماتِهِ التي لا عُذرَ لأحدٍ في جحودِها أو تَركِها، التي يُكفَّر الواحدُ بجحودِها، فإن الطائفةَ الممتنعةَ تُقاتَلُ عليها وإن كانت مُقِرّةً بها، وهذا مما لا أعلمُ فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عندَ المحققينَ من العلماءِ ليسوا بمنزلةِ البُغاةِ، بل هم خارجون عن الإسلامِ بمنزلةِ مانعي الزكاةِ، ومثلُ هذا كثيرٌ في كلامِ العلماءِ، والمقصودُ التنبيهُ على ذلك.

ويكفي العاقلَ المنصفَ ما ذكرهَ العلماءُ من كلِّ مذهبٍ في بابِ حُكمِ المرتدِّ، فإنهم ذكروا فيه أشياءَ كثيرةً يُكفَّر بها =

= الإنسانُ، ولو أتَى بجميع الدِّين، وهو صريحٌ في كفرِ عُبّادِ القبورِ، ووجوبِ قتالِهم إن لم ينتهوُا حتى يكونَ الدينُ لله وحدَه.

فإذا كان من التزمَ شرائعَ الدِّينِ كلَّها إلا تحريمَ الميسرِ أو الربا أو الزنَى يكون كافراً يجبُ قتالُه، فكيف بمن أشركَ بالله ودُعِي إلى إخلاصِ الدِّينِ لله، والبراءةِ والكفرِ بمن عُبِدَ غيرَ الله، فأَبَى عن ذلك، واستكبرَ، وكان من الكافرين.

قولُه: (وحسابُه على الله) أي: إلى الله تباركَ وتعالى، هو الذي يتولَّى حسابَه، فإن كان صادقاً من قلبِه جازاه بجناتِ النعيمِ، وإن كان منافقاً عَذَّبَه العذابَ الأليمَ، وأما في الدنيا فالحكمُ على الظاهرِ، فمن أتى بالتوحيدِ والتزمَ شرائعَه ظاهراً، وجبَ الكفُّ عنه حتى يتبينَ منه ما يخالفُ ذلك، واستَدلَّ الشافعيةُ بالحديث على قَبولِ توبةِ الزَّنديقِ، وهو الذي يُظهِر الإسلامَ ويُسِرُّ الكفرَ.

والمشهورُ في مذهب أحمدَ ومالكٍ أنها لا تُقبَلُ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة:١٦٠]، =

= والزِّنديقُ لا يتبيَّنُ رجوعُه؛ لأنه مُظهِرٌ للإسلامِ مُسِرٌّ للكفرِ، فإذا أظهرَ التوبةَ لم يَزِد على ما كان منه قبلَها.

والحديثُ محمولٌ على المشركِ، ويتفرعُ على ذلك سقوطُ القتلِ وعدمُه، أما في الآخرةِ فإن كان دخلَ في الإسلامِ صادقاً قُبِلَت[1]*.

---

* أحد الطلبة: ليس عندي قوله: (دخل في الإسلام).

الشيخ: والمراد بقوله: «فإن كان صادقاً» في توبته؛ أي: الزنديق، أي: بينه وبين الله إن كان صادقاً فهي مقبولة، إنما هذا في الحكم الظاهر بين الناس.

---

(١) ص٩٦-٩٧.

۞ وفيه: وجوبُ الكَفِّ عن الكافر إذا دخلَ في الإسلام ولو في حالِ القتالِ؛ حتى يتبيَّنَ منه ما يخالفُ ذلك.

وفيه: أن الإنسانَ قد يقول: «لا إلهَ إلا اللهُ» ولا يكفرُ بما يُعبَد من دونِ الله.

وفيه: أن شرطَ الإيمانِ الإقرارُ بالشهادةِ، والكفرُ بما يُعبَد من دونِ الله، مع اعتقادِ ذلك، واعتقادِ جميع ما جاءَ به الرسولُ ﷺ.

وفيه: أن أحكامَ الدنيا على الظاهرِ، وأن مالَ المسلمِ ودمَه حرامٌ إلا في حقٍّ، كالقتلِ قِصاصاً ونحوِه، وتغريمِه قيمةَ ما يُتلِفُه.

قولُه: (وشرحُ هذه الترجمة[١] ما بعدَها من الأبوابِ) يعني: أن ما يأتي بعدَ هذه الترجمةِ من الأبوابِ شرحٌ للتوحيدِ، وشهادةِ «أن لا إلهَ إلا اللهُ»؛ لأن معنَى التوحيدِ =

---

(١) يعني باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله، انظر ص٥٩، وكان الأولى أن يقول: قال المصنفُ: (وشرح هذه الترجمة...) بدل: قوله: (وشرحُ هذه الترجمة...)، لأنه لم يسبق ذكر ذلك.

= وشهادةِ «أن لا إلهَ إلا اللهُ»: أن لا يُعبَدَ إلا اللهُ، ولا يُعتَقدَ النفعُ والضرُّ إلا في الله، وأن يُكفَرَ بما يُعبَدُ من دونِ الله، ويُتبرَّأَ منها ومن عابديها.

وما بعدَ هذا من الأبوابِ بيانٌ لأنواعِ من العباداتِ والاعتقاداتِ التي يجبُ إخلاصُها لله تعالى، وذلك هو معنى التوحيدِ وشهادةِ «أن لا إلهَ إلا اللهُ»، والله أعلم*.

---

* س: هل البنوك الربوية استحلال لما حرم الله؟

ج: الاستحلال شيء، والفعل شيء ثان، قد يكون استحلالاً، وقد يكون فعلاً من الاستحلال وطاعةً للهوى والشيطان.

فالواجب منعهم مطلقاً، ولو قالوا: إنهم غير مستحلين، ليس هذا شرط الاستحلال، المقصود أن فعل الربا يجب أن يمنع مطلقاً ولو قالوا: إننا غير مستحلين، وأما جنس استحلال الربا محرم مطلقاً، ولو لم يفعله، فإذا استحل الربا أو الزنى ولو لم يفعله فهو كافر، لكن إذا فعله فهو محل تفصيل، إذا ما استحله أوفعله من أجل الهوى والطمع في المال أو غير ذلك.

س: لو كان الفعل من قبل النصارى في استحلال الربا؟

ج: هذا من فروع دينهم فأولاً يطالبون بالدخول في الإسلام، وإنما الكلام في هذا المجال مع المسلمين فقط. =

....

= س: **يقول الشيخ «عدم التزام تحريم الدماء أو الأموال، أو الخمر أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم... إلخ»؛ على كل حال « أو عن التزام جهاد الكفار»؛ أي: ما المانع من ترك الجهاد؟**

ج: إذا كان هذا وجهاً من وجهات الشبه ـ إذا كان له شبه ـ فلا مانع من ذلك، لأنه قد يكون هناك شبه مثل العجز عن الجهاد، وعدم القدرة على الجهاد، وعدم التمكن من الجهاد، أما إذا كان لجحد الشرعية وأنه جاحد للجهاد فهذا يكون ردةً. فالترك يجب أن يكون له أسباب، إذا كان الترك لإنكار الشريعة، أي: شرعية الجهاد هذا يكون كفراً، أما إذا كان الترك لشبهة، إما لعجز أو ضعف أو جبن فلا يكون كفراً بل قصاراه أن يكون معصيةً، لأن ترك الواجبات يختلف.